مجلة إشكالات في اللغة والأدب   مجلد: 10 عدد: 1 السنة: 2021
ص: 378 - 392   E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

صورة المثقف بين الإثبات والاستلاب، رواية من قتل أسعد المروري للحبيب السايح أنموذجا

The Image of the Intellectual Between Evidence and Alienation-the Novel of "Who murdered Asaad El-Morrori" by El habib Al-Sayeh as a Model

لبنى بوعنان *
Loubna Bouanane

جامعة محمد لمين دباغين –سطيف2 (الجزائر) مخبر المثاقفة العربية في الأدب ونقده
University of Setif- Algeria
l.bouanane@univ-setif2.dz

تاريخ الإرسال: 2020/04/20	تاريخ القبول: 2020/09/03	تاريخ النشر : 2021/03/30

ملخص البحث

يروم هذا المقال التنقيب في شخصية المثقف الرافضة والمعارضة للسلطة، هذه الشخصية التي حملت على عاتقها مسؤولية مواجهة الأيديولوجيات الزائفة وكشف ممارسات الهيمنة وفضحها أمام المجتمع وقد اعتمدنا على رواية " من قتل أسعد المروري" للحبيب السايح كمتن إجرائي باعتبارها تنحو وتتطور في الأبنية الأركيولوجية للوعي الاجتماعي ولتمثلات مختلفة لواقع واحد، لاسيما أن المثقف قد تقمص أدوارا متعددة في علاقاته وفي حروبه مع السلطة من أجل تكريس ذاته وإثبات هويته الثقافية.

الكلمات المفتاحية : صورة المثقف، الهوية، السلطة، الإثبات والاستلاب، من قتل أسعد المروري

Abstract:
This article aims to explore the personality of the intellectual who rejects and opposes the authority, this figure who has taken upon itself the responsibility of confronting false ideologies and exposing the practices of domination and exposing them to society. We have relied on the novel " who murdered Asaad El-Morrori" by Habib al-Sayeh as a procedural body, as it tends and develops in the archaeological structures of social consciousness and different representations of one reality , especially since the intellectual has assumed multiple roles in his relationships and in his struggles in order to consecrate himself and prove his cultural identity.

* لبنى بوعنان: l.bouanane@univ-setif2.dz

Keyword: intellectual image, identity, authority, evidence and alienation, Who Murdered Assad El-morrori.

تمهيد:

واجهت الأعمال الثقافية تحديات كبرى أثناء مسيرتها في الإبداع والتجريب وعلاقتها بالسياقات الثقافية والمعرفية والبنيات الداخلية للمجتمع الذي تكتب عنه وتستمد مادتها منه، مما جعلها رهينة معايير اجتماعية سياسية معينة تمارس عليها نوعا من الرقابة، وهذا ما لا يتوافق مع غايات الإبداع وخصوصيات الكتابة في حد ذاتها، فالكتابة تنزع للحرية ولكسر القيود النفسية والاجتماعية، وتعبر عن ما عجز عن قوله هذا المجتمع الخاضع للمؤسسات السلطوية واتجاهاتها الأيديولوجية التي تعمل على التضليل الفكري للجماعات والأفراد حتى تضمن سير ممارساتها وسيطرتها على التفكير العام، ما جعل المهمة أمام المثقف أصعب فهو المعبر عن صوت الشعب المتبني لهمومه الاجتماعية، المنور لعقولهم والباحث عن حلول لمشاكلهم فهو إنسان غير عادي لأن رسالته تنويرية تهمه قضية الحقوق والواجبات والتطور العام لمجتمعه .

1: مفهوم المثقف:

من هو المثقف؟ هل كل شخص يفكر ويقرأ نعده مثقفا؟

هذا أحد الأسئلة التي حاول الكثير من الباحثين والمفكرين الإجابة عنها باعتبارها مفتاح الولوج إلى مكامن هذه الظاهرة، ولعل أول من بادر في البحث عن هذا المفهوم نجد أنطيونيو غرامشي وجوليان بندا وبالنسبة للأسماء العربية نجد إدوارد سعيد وعلي حرب...، وإذا ما توقفنا عند مفهوم المثقف عند كل واحد منهم نجده مقترن بالسلطة لأن دوره لا ينشط إلا في إطارها، وقد تأصلت هذه العلاقة بين المثقف والسلطة منذ عصور متقدمة في الثقافة العربية فعرفنا مجموعة من الأدباء والمفكرين الذين كانوا عبارة عن وسائط بين السلطان والعامة كأبي حيان التوحيدي ومسكويه والجاحظ وابن المقفع ..الذي كان ضحية آراءه الجريئة في الدفاع عن قضايا المجتمع، لأن السلطة منذ ذلك التاريخ الموغل في القدم كانت تنظر إلى المثقف كخادم للإرادة السياسية بحيث كان المثقف" يشارك نظريا في مشروع السلطة، ولم يكن يملك رفاهية اختيار موقف آخر، فالحرية والاختيار الواعي اللذان لا تكتمل دونها أية ثقافة إنسانية محترمة، كان عدوين مباشرين

للحكومات الاستبدادية التي لم تدرك أية هوامش للخلاف والاختلاف وأفهمت المثقفين منذ البداية أنها لا تريد غير طبقة من الموظفين المخلصين، وهكذا كانت تزداد مكانة الكاتب بمقدار قدرته على ترجمة مشروع الحاكم، وتقديمه للناس في حالة قشيبة من الخطابة والكتابة" [1] ذلك أن للسلطة يد في تسيير المؤسسة الثقافية ما جعلتها مراقبة، وإذا ما انتقلنا إلى التنقيب عن مفهوم المثقف في العصر الحديث وجدنا أن أول ظهور له كان مع الثورة الاشتراكية في بداية الخمسينات من القرن الماضي، بحيث ضم كل من العلماء والأدباء والفلاسفة في خانة المثقفين.

أما كلمة **المثقف** مصطلح لا يزال مفهومها ضبابيا، فهي لم تكن تأتي بهذه الصياغة لاسيما في الثقافة العربية، وتم التعبير عنها بمسميات مختلفة مثل "الأديب" " والفيلسوف"، أما في السياق الغربي فكلمة "المثقف بالإنجليزية قد تعني "المفكر" وقد ترتبط بعبارات مثل " البرج العاجي" و"إثارة السخرية" أو الاستهزاء وقد أكد هذا الاتجاه في التفكير ما ذكره المرحوم رايموند ويليامز في كتابه كلمات أساسية قائلا إن الكلمات الإنجليزية التي تعني المفكرين والصبغة الفكرية وطبقة المفكرين، كانت ذات دلالات تحط من قدرها، وقد ظلت هذه الدلالات سائدة حتى منتصف القرن العشرين"[2]

ولربما لا تعنينا الملفوظات والصياغات البلاغية لكلمة المثقف بقدر ما تهمنا معانيها ووظائفها، غير أننا نجد أنفسنا ملزمين بتوضيح تعريفاتها ومفاهيمها ومن بين أهم التعريفات وأشهرها نجد تعريف **أنطونيو غرامشي** "المناضل الماركسي الإيطالي، والصحفي والفيلسوف السياسي النابه (...) يكتب فيما كتب في مذكرات السجن قائلا: أن جميع الناس مفكرون، ومن ثم نستطيع أن نقول، ولكن وظيفة المثقف أو المفكر لا يقوم بها كل الناس"[3] هذا التعريف الذي أطلقه غرامشي على المثقف جاء شاملا في عملية التفكير فجميع الناس لهم القدرة على ذلك، غير أنه جاء خاصا ومميزا في الوظيفة فمهمة المثقف لا تقتصر على التفكير فحسب، لأن أفكاره لابد أن تكون مبتكرة ومبدعة وتؤدي رسالة توعوية تنويرية تخدم المجتمع كل حسب تخصصه، فكان المثقف عنده أقرب إلى المثقف التقليدي العضوي.

أما تعريف" **جوليان بندا**" فقد كان مختلفا فهو يرى أن المثقفين عبارة عن" جماعة صغيرة من ملوك حكماء يتحلون بالموهبة الاستثنائية والحس الأخلاقي العالي، وقفوا أنفسهم لبناء ضمير

الإنسانية، (...) المثقفون الحقيقيون يشكلون نخبة كائنات نادرة جدا في الحقيقة، مادام ما يرفعونه هو القيم الخالدة للحقيقة والعدالة التي هي بدقة ليست من هذا العالم"[4]

والملاحظ في تعريف " بندا " للمثقف أنه صنفه في مراتب سامية تجاوزت الواقع إلى ما ورائه وذهبت به نحو عوالم ميتافيزيقية، فلطالما احتفى بشخصيات دينية مثل المسيح وتأثر بآراء الفلاسفة والموغلين في الفن أمثال سقراط وفولتير ...ويؤكد ذلك صراحة في تعريف آخر له للمثقفين الحقيقيين حيث يقول" هم هؤلاء الذين نشاطهم بالدرجة الأولى ليس ملاحقة الأهداف العملية، والذين يسعون إلى مسرتهم في ممارسة فن ما أو علم ما أو تأمل ميتافيزيقي، باختصار في امتلاك مزايا غير مادية، ولهذا السبب يقولون بطريقة محددة : مملكتي ليست من هذا العالم"[5] وقد جاء مثقف بندا فريدا من نوعه في صورة لامعة تملؤها الجاذبية، نظرا لما يتحلى به هذا المثقف من نظرة ثاقبة فاحصة للأمور وصور باهرة تنادي بتخليد المبادئ الأخلاقية مثل العدالة وتقديس الحقيقة.

أما **إدوارد سعيد** فقد حاول أن يلم بمفهوم المثقف من كل جوانبه ما جعله يستعرض مجموعة من التعريفات المختلفة لبعض الباحثين في قوله:" استخدمت كلمات مرادفة للمثقف كالمتعلم، فماكس فيبر يعتقد أن المثقف يحمل صفات ثقافية وعقلانية مميزة، تؤهله للنفاذ إلى المجتمع والتأثير فيه بفضل المنجزات القيمية الكبرى، أما إدوارد شيلز فيعرف المثقف على أنه الشخص المتعلم الذي يمتلك طموحا سياسيا للوصول إلى مراكز صنع القرار السياسي، أو من خلال دوره المحوري الحاسم في توجيه المجتمع عن طريق التأثير على القرارات السياسية الهامة التي تؤثر على المجتمع ككل..."[6] وقد استفاد إدوارد سعيد من هذه التعريفات الكلاسيكية وتماهى معها من دون أن يتخلى عن رؤيته الخاصة فالمثقف عنده لا يمثل الفئة المتعلمة فقط ولا صاحب الكفاءة السياسية، وإنما كان يريد من المثقف أن يكون ذو هوية ثقافية اجتماعية تهبه شرعية النيابة والدفاع عن حقوق الطبقة الاجتماعية، وتوجهه هذا نابع من تجربة شخصية عايشها كمثقف مغترب محافظ على أصول الثقافة الوطنية، فكان مفهومه للمثقف أقرب لاعتقاد هشام شرابي الذي يرى بأن المثقف" هو الشخص الملتزم والواعي اجتماعيا، بحيث يكون بمقدوره رؤية المجتمع والوقوف على مشاكله وخصائصه وملامحه وما يتبع ذلك من دور اجتماعي فاعل من المفروض أن يقوم به لتصحيح مسارات مجتمعية خاطئة"[7]

غير أن محاولات المثقف في التصحيح والإصلاح والتغيير، قد أثار قلق بعض الجهات السلطوية العليا التي تتولى تسيير المجتمع، ما جعلها تبحث عن طرائق وحلول للتفاوض معه، وتجعله تابعا لها لا معارضا لإرادتها، فأخذت تبحث عن مثقفين يدافعون عن مصالحها ويكنون الولاء لها وقد أشار إدوارد سعيد إلى ذلك في كتابه خيانة المثقفين فقال" يجب دائما على المرء أن يبدأ مقاومته من وطنه ضد السلطة كمواطن يمكنه التأثير، لكن يا للأسف، فقد سيطرت القومية المتدفقة المتقنعة بالوطنية والمصلحة القومية على الشعور النقدي، الذي يضع الولاء للأمة فوق كل اعتبار في تلك النقطة ليس هناك سوى خيانة المثقفين والإفلاس الأخلاقي الكامل"[8] نفهم من هذا أن هناك مرجعيات مركزية كبرى تعمل على تبرئة سياقات الهيمنة تحت قناع الوطنية، وتبرر هيمنة السلطة على المؤسسة الثقافية وإنتاجها ما جعل المعرفة تئن في قبضة السياسة.

ما ذهب بالبعض إلى الاعتقاد بأن مكافأة المثقف على مهامه هي أن يجد له منصبا في السلطة بتأديته دورا سياسيا وقد فند إدوارد سعيد هذا الاعتقاد لأن مهمة المثقف وهدفه الأساسي هو" أن يرتقي بالوعي، وأن يصبح أكثر إدراكا للتوترات والتعقيدات، وأن يتحمل مسؤولية مجتمعه، هذا دور لا علاقة له بالتخصص، فهو متعلق بقضايا تتخطى حدود المجالات المهنية المحترفة" [9] لأن الاختصاص في ميدان ما أو علم ما يضيق دائرة الإدراك والمعرفة في المجالات الأخرى.

ليأتي **علي حرب** ويؤكد ما ذهب إليه إدوارد سعيد فهو الآخر لا يعترف بالاختصاص في فرع من فروع المعرفة ما جعله يقدم تعريفا شاملا للمثقف فهو يرى بأنه" من تشغله قضية الحقوق والحريات، أو تهمه سياسة الحقيقة، أو يلتزم الدفاع عن القيم الأخلاقية المجتمعية الكونية بفكره وسجالاته، أو بكتاباته ومواقفه، وقد يكون المثقف طوباويا أو عضويا، ثوريا أو إصلاحيا، قوميا أو أمميا، اختصاصيا أو شموليا، متفرغا لمهمته أو غير متفرغ، وقد يكون شاعرا أو كاتبا أو فيلسوفا أو عالما أو فقيها أو مهندسا، أو أي صاحب مهنة أو حرفة أو صناعة" [10]

بالتالي فالإنسان لكي يصنف في فئة المثقفين لابد له أن يكون على قدر من الثقافة التي تمكنه من تمثيل مجتمعه في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والأدبية... فالمجتمع يتطور بنشاط وفاعلية أفراده الذين يلقون على عاتقهم مهمة تقدم وتطور هذا المجتمع، باعتبار أن المثقف حامل لواء العلم والمعرفة والمتبني للمواقف الحضارية، إنه الذات الواعية بالظروف المعاشة التي تقود

الأمة إلى الرقي والازدهار انطلاقا من رقي مبادئه وإعمال فكره وإدراكه ووعيه، وقد أشار علي حرب هو الآخر إلى دور المثقف فقال بأن رهانه هو"خلق واقع فكري جديد بإنتاج أفكار جديدة، أو بتغيير نماذج التفكير، أو بابتكار ممارسات فكرية جديدة، أو بإعادة ابتكار الأفكار القديمة على أرض الممارسة وفي أتون التجربة"[11]

ثم إن ابتعاد المثقف عن تحقيق هذه الأهداف وتناسيه لدوره الحقيقي هو ما كان سببا في فشله، لأن ارتقاء الواقع الاجتماعي ينم عن خلق جديد للأفكار وإتباع سيل الإبداع ولا يتم بالتكرار والاستهلاك، بحيث يبدو المثقف" أعجز من أن يغير ما أراد تغييره، وجهله المركب بمهمته وبالواقع، أفضى إلى ممارسة التعسف والاستبداد، ولا غرابة ففي غياب الأفكار الخلاقة والأجواء الفكرية الخصبة تتخذ محاولات التغيير طابع الاستبداد من قبل السياسي، حيث يطغى الأمر على العقل وتحل المصادرة محل الفكر، أو تتخذ طابع التعسف من قبل المثقف نفسه"[12] هذا ما أدى إلى ظهور مجموعة أخرى من المثقفين تستحق التهجين لأنها انحرفت عن المبادئ الأخلاقية العامة من أجل المحاباة والحفاظ على مصالحها وسمعتها ومنصبها" هذه العادات الفكرية هي مصدر الفساد لدى المثقف دون منازع، وإذا ثمة شيء قادر على تشويه الحياة الفكرية المشبوبة و"تحييدها" ثم قتلها في النهاية، فهو استيعاب المثقف لهذه العادات."[13]

لذا جاء هذا المقال للبحث عن صورة المثقف داخل مجتمعه وفي علاقاته مع السلطة معتمدين في ذلك على رواية " من قتل أسعد المروري" "للحبيب السائح" أنموذجا.

2: صورة المثقف بين الإثبات والاستلاب في رواية "من قتل أسعد المروري ":

تمثل الرواية شكلا من أشكال التعبير عن الوعي الاجتماعي باعتبارها من " أكثر الفنون التصاقا بالحياة والواقع الاجتماعي، ذلك لأنها اهتمت ومنذ نشأتها الأولى بتصوير حياة الإنسان بجوانبها المختلفة واصفة ما يطرأ عليها من تغيرات فكل مرحلة يعيشها المجتمع تفرز نمطها الروائي الخاص بها، وهو ما أدى إلى انفتاحها ورفضها لجميع القيود."[14] فالرواية الجزائرية باعتبارها نص يحاكي الواقع ويمثله استطاعت التعبير عن القضايا العامة التي تشغل المجتمع الجزائري وتؤرقه فقد جاءت على غرار الروايات العربية والغربية تعج بالمرجعيات الثقافية على اختلاف روافدها التاريخية والاجتماعية والسياسية ومن بين هذه الأعمال نجد تجربة "الحبيب السايح" برواياته التي تعبر عن أوجاع المجتمع الجزائري وتاريخه وثقافته.

وقد ارتأيت أن تكون رواية "من قتل أسعد المروري" مسرحا لدراسة المثقف على اختلاف صوره وعلاقاته بالمجتمع والسلطة، إذ لا يخفى علينا مساهمة المثقف الجزائري في التفكير والفحص النقدي وتحليل المواقف واقتراح الحلول من أجل النهوض بالفكر التوعوي في الجزائر.

أ- موقف الإثبات ونظرة المثقف للسلطة:

إن المثقف الحقيقي في نظر بندا يفترض أن يكون على استعداد دائم لأن يعذب علنا أو ينبذ من المجتمع تماما في سبيل إثبات وجهة نظره وفضح ما يتستر تحت عباءة السلطة من فساد واضطهاد لحريات الأفراد في المجتمع الذي يسكنه وفي الوطن الذي يسعى إلى تنويره برؤياه وأفكاره وإنقاذه من وحل الظلمة والفساد، لذلك سمي بالمثقف المعارض أو المضاد لأن حياته دائما في خطر ومصيره سائر إلى زوال بسبب القوة التي تترصده وتحد من تقدمه ونشر مبادئه، ونجد في الرواية نماذج متعددة لمحاولات المثقف المعارض في سعيه لإثبات موقفه، وقد عرفت رواية " من قتل أسعد المروري" شخصيات مثقفة مختلفة تمثلت في"أسعد" الأستاذ الجامعي المتخصص في المسرح والتابع لحزب الحركة الديموقراطية وحوله تدور أحداث الرواية، ليأتي "رستم معاود" الصحفي من جريدة القوس، وهو البطل الذي يسعى إلى تتبع قضية مقتل الأستاذ "المروري" واستجلاء ملابساتها معتمدا في ذلك على وثائق وتسريبات ولقاءات مع رجال أمن وشهود من محيطي الضحية والمتهم، ثم تأتي "لطيفة منذور" الطبيبة الشرعية في المستشفى الجامعي كمثقفة أخرى تساند الصحفي "رستم" في بحثه عن الحقيقة. إضافة إلى شخصيات مثقفة أخرى تضج بها الرواية.

"... أتشوق لرؤية أستاذ جامعي يمثل مايقدمه لطلبته نظريا (...) " بوحزب " مابقات فيه رجلة ؟

وسكن متظرا، فقام بوحزب ومشط بعينين زائغتين" لا حزب ولا رجولة ولا زعامة! فضائح ونوائب (...) أخرج مسدسا من تحت جلابته ولوح به في الهواء (...) أنا الذي به طردت فرانسوا من هذه الأرض،(...)أخرس! كفاك كذبا على تاريخ الأمجاد."[15]

نجد أن المثقف في هذا المقطع يشير إلى مرحلة تاريخية ماضية يذكر فيها بدور الأحزاب السياسية التي بفضلها استطاعت الجزائر أن تخرج من محنتها وتطرد المستعمر على غير ما هو حال الأحزاب اليوم "بوحزب" التي تنشد مصالحها الخاصة فأصبحت رمزا للفضائح والفساد.

ونجد بأن وظيفة المثقف تتمثل في نوعين: النوع الأول ويضم المثقفين التقليدين من معلمين وإداريين الذين يلتزمون بنفس الوتيرة في أداء مهامهم، أما الثاني فيسميهم "غرامشي" بالمثقفين المنسقين أو الفاعلين ويرى بأن لهم صلة مباشرة بالطبقات الاجتماعية والمشاريع السياسية التي تعتمد على المثقفين في تنظيم مصالحها واكتساب المزيد من السلطة والمزيد من الرقابة.[16]

يجب على المثقف الحقيقي أن يعمل وفق المبادئ الإنسانية العامة ويسعى بفكره إلى نشر مبادئ الصدق والعدل في المعاملات وفضح الفساد الذي تمارسه بعض السلطات "اطمئن إنها من تسريبات موثوقة، هل تسمح بأن ندرجها كهامش؟ (...) لا أرى مانعا(...) فعلا، سيدي الرئيس! في هذا تجدون تفاصيل عن أنواع الغش التي شابت إنجاز الطريق السيار، ومبالغ الرشاوي والعمولات الصورية، قاطعه المهرج في العتمة يسأله عن بقية التقرير، فاستغرب له عن أي بقية يتحدث، فذكره بتلك التي تتضمن أسماء الشركات الأجنبية المتورطة، فرد عليه أنها قضية علاقات دولية."[17] نجد المثقف "أسعد المروري" في أداءه لهذا الدور المسرحي يسعى إلى فضح الصفقات التي قامت بها شركة المحروقات الوطنية مع شركة أجنبية، وتأسيس بنك خاص من أجل ذلك، فهو كمثقف يدعوا إلى فضح هذه المعاملات وإيقافها عند حدّها" والجميع يعلم أن ذلك كله كان يجري على مسمع ومرأى كما على هذا الركح فلم لم يتم توقيفه في حينه، كما نستطيع أنا وأنت توقيف مشهد هذه المهزلة."[18]

يتضح من خلال سطور الرواية أن المثقف"أسعد المروري"، كان مثقفا فاعلا يحشد كل طاقاته الحية من أجل التغيير وإخراج البلاد من وحل السياسات الفاشلة والوقوف في وجه السلطة بكل شجاعة حيث" كان يرى أن الوضع لم يعد يحتمل، وأن إنقاذ البلد من الانهيار القادم صار مسؤولية تاريخية للبدء، كان يجدها ضرورة إنشاء هيئة وطنية لتنسيق الجهد والفعل." [19]

أما بالنسبة لنظرة المثقف للسلطة تمثلت في صورة سلبية جراء الممارسات التي تركتها عالقة في ذهنية "أسعد المروري"حيث يقول في أحد مقاطع الرواية " أسيادكم! إني أراهم على موائدهم يأكلون كضباع، يتعاشرون كخنازير، يسرقون كجياع، يقتلون كمجرمين ثم يترهلون ككلاب ويتعفنون كتفاحة"[20] وهذا الوصف مؤشر دال على النهب وانتهاك حقوق الأفراد من قبل السلطة والأسياد إذ نلمح "المروري" يواصل تأدية دوره كمثقف فاعل في متون هذه الرواية عندما قام بتنظيم إضراب للأساتذة وكان هو من تولى المفاوضات مع الإدارة فنجده يقول:" إنا نحن جئنا في

هذا الزمن فلأن الوطن بحاجة إلى وجودنا، معا سنبني معا سنغير، ومعا سنلحق صوتا بأصوات الذين يغنون للحرية والعدالة، والآن اسمحوا لي أن أعرض عليكم وجهة نظري إلى التغيير السلمي في البلد."[21]

تشير المقاطع السابقة إلى أن المثقف قبل أن يسلك طرائق الرفض والتمرد حاول بكل الأساليب والصيغ أن يجد حلولا لأزمة الوطن في نطاق من الإصلاح والتعاون السلمي، فللمثقف حق في التعبير عن وجهة نظره في الأنظمة السياسية المقترحة ودوره في المجتمع يؤهله لتبني صوت الشعب وتوجيهه وتوعيته واقتراح الحلول لأزمته، غير أن شجاعته (أسعد المروري) هذه كلفته الكثير؛ بحيث أصبح مهددا من قبل جهات خاصة، وليس كل المثقفين يعملون على نشر نفس الرسالة فهناك فئة ممن "التحقوا بالسلطات وعملوا في خدمتها كأجهزة إيديولوجية، يزينون أفعالها، ويدافعون عن فشلها وهزائمها ويبررون ما أحدثته من تبديد."[22]

والنتيجة التي سيحصدها المثقف في كلتا الحالتين سواء كان معارضا للسلطة أو مؤيدا لها هي العجز والتهميش، لأن المثقف الحيوي والمعارض لأنظمة السلطة سيظل خصما مراقبا تحسبا لأي محاولة للتغير، وبالنسبة للمثقف التابع يظل أسير الأيديولوجيات المهيمنة لأنه لا يعبر إلا عنها ولا يكتب إلا من أجلها.

ب– موقف الاستلاب ونظرة السلطة للمثقف:

اتخذت السياسة منحى كبيرا في النص الروائي باعتبارها أحد الأنساق المشكلة للنص وأهم التيمات المحفزة لنشاط المثقف الذي عانى الويلات إثر محاولة التصدي لها ومخالفة آرائها، حيث كان المثقف " هو الشخص الذي يثير القضايا التي تقطع كل أنواع الروتين الاجتماعي والضغط السياسي"[23] إلا أن علاقة المثقف بالسلطة تحتمل وجهين متضادين، وجود مثقف معارض يعلن الصدام والقطيعة مع السلطة ويرفض الرضوخ لإرادتها، ومثقف خاضع مستلب الهوية كل نشاط يقوم به هو لخدمة هذه الجهة السلطوية المتصرفة في الشؤون العامة، " أولئك الذين يغطون للتلفزيون العمومي ولجرائد حكومية كنت أراهم جديرين بالرثاء، ذلك أنه لا هامش لهم غير ما هو رسمي (...) وهم يعرفون أن ما حرروه سيخضع لرقابة تبدأ من مدير التحرير (...) إلى ضابط الأمن."[24]

يكشف المقطع عن نسق ثقافي مضمر وهو تحكم السلطة في إنتاج الثقافة والمثقفين وبهذا رفع الستار عما يعانيه الفكر الجزائري من رقابة تحد من الإبداع الفكري والأدبي، وهذا ما جعل من هوية المثقف مستلبة وخاضعة، لأنه لا يكتب إلا لصالح السلطة خوفا على مصالحه الشخصية هو أيضا على خلاف المثقف" الطلائعي الذي يناقض السلطة صراحة وبشدة وهو يخشى الاستلاب فيها، باختياره موقعا خارجها فهو لا يطمئن لها، لذلك يؤثر الانفصال والوحدة والعمل السري أو الفردي أو الممكن أو الجماعي لكن بعيدا عن المؤسسة الرسمية ومصيره التهميش والمعاناة أو المقاومة والتحدي على الضفاف التي لا يلتقي فيها بجمهور واسع من الشعب."[25]

بالتالي فالمثقف في كل مواقفه إزاء السلطة ستكون أفكاره ومبادئه مقيدة وحبيسة حريتها وإبداعها، فإذا أراد المثقف أن يلتزم بمبادئه ويعبر عن أفكاره بصراحة وشجاعة صنف ضمن الخارجين عن القانون، تترصده العنصرية ويد السلطة" ثمة توهمته هلوس لي" ما السياسة غير التعهر" (...) اغتياله تراجيديا ولا يمكن قبولها، حسب المعلومات التي استلمتها فإن السيد المروري يكون تلقى جروحا كثيرة على مستوى الرأس، الأمر الذي يحملني على الاعتقاد بأن هذا الفعل عمل تعسفي."[26] لقد اغتيل المروري في ظروف غامضة إذ اختفى قبل خمسة أيام من العثور عليه جثة هامدة بمقر حزب الحركة الديمقراطية التي ينتمي إليها، وعند بداية التحقيق وإحالة ملف القضية إلى محكمة الجنايات بدأت التحريات وبدأت الشكوك والتساؤلات من قتل أسعد المروري؟ لماذا قتل؟ هذا السؤال الذي جاء من قبل الكاتب دون إحالة استفهام (؟) دالة على التساؤل، هل الحبيب السايح عندما حدد العنوان بهذه الصيغة أراد منا تحري يقينية خبر قتل الأستاذ "أسعد المروري" في متون الرواية التي انتهت ولم تفصح عن القاتل الحقيقي لهذا المثقف، إلا أن جميع المؤشرات تدل على تدخل يد السلطة في هذه الجريمة، فهل نفهم من هذا أن الصراع الذي يعيشه المثقف مع السلطة انتهى بغلبة السلطة وسقوط المثقف" ضحية أخرى لشبح الظلام وسط هذه الحال من الفشل والضياع المعمّمين ! فهل من جدوى بعد للموت من أجل مبادئنا."[27]

إن المتتبع لسطور الرواية سيجد تكرار قرينة شبح الظلام بصيغ مختلفة أكثر من مرة لاسيما أن كل الجرائم التي تدخل فيها، كانت لإنهاء حياة مجموعة من المثقفين" أيادي الغدر تطال أستاذ الفلسفة علي زيطور أمام ثانويته"[28] هذا ما حملنا للنظر إلى هذه الجريمة (جريمة قتل المثقف "أسعد المروري") على أنها اغتيال سياسي مبعدين في ذلك الأسباب الجنسية، التي أتهم بها المروري" بدأ

يشاع عن القاتل أنه منحرف وعن الأستاذ أنه من المثليين"[29] هذا ما نفته كل من أطراف الضحية والمتهم ومنظمات حقوقية ومدنية لأن السلطة حتى وإن كانت لها يد في الجريمة لن تفصح عن ذلك وستغلفها بدوافع أخرى" ثق!ملف التحقيق سيسكت عن أسباب الاغتيال الحقيقية وإجراءات المحاكمة ستشوبها لطخات ظل وشك" [30] لأن السلطة ستنتصر دائما وذنب المثقف أنه أراد إقحام أفكاره ومقولاته ضمن المجتمع والأنظمة السياسية وذنبه أنه وجد في " زمن عنيف صنع أزمة جعلت هذا المثقف يعاني مسألة الوجود في واقع فقد الاستقرار والأمن."[31]

العنف والاضطهاد والخوف والضياع تلك هي الحال التي سيؤول إليها المثقف الذي يرى أنه بإمكانه أن يترك لمسة التغيير، بواسطة امتلاكه للأفكار والنظريات التي توجه التاريخ " لتنقلب عليه الوقائع والأحداث من حيث لا يفكر، فينظر بعين أمل للصيغ التي تحل المشكلات التي تعاني منها البشرية فتفاجئه الثغرات والاختلالات والاستبداد من طرف السلطات العليا، وهذا شأن من يعتقد أنه بوسعه تشكيل مجتمع على مقاس أفكاره وأحلامه ليكتشف في الأخير بأن أفكاره لم تكن سوى خيالات وأوهام لم تنقذه من الهلاك، ولكن بعد خراب البصيرة.[32]

بالتالي فالمثقف باعتباره قطبا معترفا بأهميته وقيمته في المجتمع سيكون لا ريب في دائرة الصراع بين المجتمع وبين السلطة في آن واحد، وستزداد مهمته صعوبة كلما أراد الارتقاء بفكره ومحاولة تطويعه لخدمة المجتمع وتصحيح الأنظمة السياسية، " قد يكون التحقيق نزيها، برغم أننا منذ الآن نعرف أنه ستعترضه موانع سياسية، لذلك فإن ملفه (...) لن يذهب إلى مداه. هل ترون أن هناك جدوى من التحقيق في ظل إجراءات تكبح الرأي؟

لن نطمئن إلى إجراءات تكييف هذه القضية والبث فيها بحكم (...) موافق لطبيعتها."[33]

يحيل إلينا هذا المقطع إلى صراع بين قطبين أحدهما مركز والآخر هامش له، ومن دون شك أن المركزية ستلحق بالسلطة؛ باعتبارها صاحبة القرارات على خلاف المثقف الذي تطبق عليه هذه القرارات.

3: فشل المثقف و أوهام الذات

حفلت رواية من "قتل أسعد المروري "بصور متنوعة للمثقف، من مثقف فاعل معارض استطاع أن يبوح بما يؤرق الواقع الاجتماعي ويفضح فساد السلطة، وهذا هو المثقف الحقيقي إلا أن المثقف الذي ظل رهين الأنظمة السياسية والتبعية للسلطة فهو مسلوب الهوية والفكر، لأنه

تخلى عن دوره كمثقف وأصبح عميلا سياسيا تتحكم في إنتاجه السلطة العليا، وهناك مثقف لا يجب علينا إغفاله أيضا وهو المثقف الذي ينشد أفكارا يصعب ممارستها وتطبيقها على مجتمعه، فيكون همه ملاحقة هذه الطموحات ومحاولة تطبيقها على أرض الواقع لينصدم في الأخير بتبخر أفكاره وأحلامه وطموحاته، وهذا ما يشعره بالخسران وبالفشل الذي استمده من مجتمعه المهزوم فكريا ومعنويا.

" (...) حضنت وجهي بين يدي أبحث في ظلمة عينيّ عن لغة أخرى غير التي بها أحرر وبها أوصل إلى قارئ ينتظر غير الذي يعرفه (...) كذلك صرت أتوهم الصحافة والصحافيين جميعا في غربال السلطة الورقي والإلكتروني".[34] فهنا المثقف "رستم معاود" يعيش حالة صراع مع نفسه ومع مجتمعه ومع السلطة فغايته تنوير الرأي العام بحقيقة ملابسات قتل الأستاذ أسعد المروري إلا أن مقاله الذي كتبه من أجل ذلك قوبل بالرفض ولم ينشر بسبب التسريبات التي تمس السلطة، فأخذ يلوم نفسه ويبحث عن أخطائه ونواقصه التي حالت دون نشر المقال، ليكتشف أن لغته بريئة وأسلوبه مخلص وإنما لاندراج المقال ضمن القضايا الحساسة التي يتخوف الرأي العام من مجابهتها، لذا فالمثقف الجزائري يواجه تحديات عديدة تعيق ممارسته لوظيفته المعرفية.

"ففي غير مكان تتراجع القيم العامة المتعلقة بالعقل والاستنارة وحريات التعبير وحقوق الإنسان، خصوصا في العالم العربي، حيث المثقفون هم دوما مصدومون ومحبطون"[35] وكأنهم لا يزالون تحت سطوة المستعمر منعدمون بوجوده فالمجتمع رهين السلطة والمثقف رهين كل من المجتمع والسلطة " الطاعون والاستعمار شيئان متلازمان وعبقرية كاتبك تكمن في أنه استطاع أن يفصل بينهما ليغطي بالأول على الثاني، وكان لا يمكنه أن يدرج في روايته حال الجزائريين البائسة في وهران وقتها"[36]

نجد الكاتب في هذا المقطع يدرج فكرة "كامو" لأنها تخدم قضية اغتيال المثقف أسعد المروري باعتبار أن الاستعمار صورة رمزية للسلطة والطاعون رمز لحالة المثقف الجزائري، فهو يرى ضرورة الفصل بينهما لأن ذلك التلازم سيلغي أحد الطرفين، أي أن تدخل المثقف في عمل السلطة سيؤدي إلى إلغائه بالتالي فقاتل الأستاذ المروري مسخر من طرف السلطة وامتداد لصورة المستعمر "أيا يكن، فالدور التنويري والتحريري للمثقف الطليعي والنخبوي قد تزعزع منذ زمن، بعد أن فقد المثقف مصداقيته وبات على هامش الفعل التاريخي"[37]

يعزي علي حرب عزل المثقف واستبداده، إلى تخليه عن ممارسة وظيفته الحقيقية وهي إنتاج الأفكار واهتمامه بإقحام مقولاته في المجتمع وفي الأنظمة السياسية "يومه الأربعاء، نهض رستم آخر من سريري، من رمادي (...) ومشيت في اتجاه جادة الأمير عبد القادر عبر شارع خميسي فارغ الذهن والروح من أي توقيت، من أي صورة من أي هم، إلا من فشلي اللاذع"[38]

في هذا المقطع نلحظ استسلام المثقف واعترافه بفشله الذريع في تحقيق أهدافه وطموحاته، رستم معاود الصحفي النبيه الذي أرقته قضية اغتيال الأستاذ المروري لم تفلح كل محاولاته وتقاريره في تبيان الحقيقة للرأي العام، لأن هذا الرأي في حد ذاته مهزوم وراض بالفشل والاستسلام، فانتقل هذا الشعور المرير إلى نفسية المثقف الذي أصبح يشعر بضعفه وعجزه وهشاشة فكره ومنطلقاته.

خاتمة:

من خلال ما سبق التطرق إليه نخلص إلى مفاد القول من هذا المقال الذي عني بصورة المثقف بين الإثبات والاستلاب في رواية من قتل أسعد المروري للحبيب السايح، وقد عرفنا نوعين من الصور إيجابية تعمل على تقويم المجتمع وتصحيح مساراته، وأخرى سلبية امتثل فيها المثقف إلى السلطة والتمس لها الأعذار من أجل المنفعة، وقد حاولنا تلخيص أهم النتائج التي وقف عليها البحث فكانت كالآتي:

-اختلفت مفاهيم المثقف من باحث إلى آخر، هناك من عده وجه من وجوه النظام المؤسساتي التقليدي ومنهم من رأى أن المثقف هو المتمرد على هذا النظام، ومجموعة أخرى صنفته في مراتب خارجة عن الواقع الاجتماعي إلى عوالم ما ورائية كما هو الحال عند بندا.

ـ أن للثقافة سلطة وهيمنة على الأفراد الذين ينتمون إليها، وليس من اليسر المساس بها.

ـ يعد المثقف حامل لواء الثقافة المتبني لأفكارها والمعبر عن أنماط سلوكها فهو أول ممثل لها.

ـ جاءت رواية "من قتل أسعد المروري" لتثير لنا قضية المثقف الجزائري وما يعانيه من التهميش من قبل السلطة، باعتباره نموذجا للوعي الاجتماعي والثقافي والسياسي.

ـ المثقف الحقيقي لابد له من الالتزام بالمبادئ الإنسانية العامة التي تنشد الصدق والعدل ومحاربة الفساد.

- المثقف يمارس دوره الرسولي والإرشادي انطلاقا من بديهيات راسخة، مفادها أن الأفكار العظيمة هي التي تصنع مجتمع عظيم.

- المثقف الذي يستحق الاستهجان هو من يزيغ عن مبادئه رضوخا عند إرادة الدولة وإرضاء لها من أجل الحفاظ على منصبه ضمن التيار الرئيسي.

هوامش:

[1] محي الدين اللاذقاني، أباء الحداثة العربية-مدخل إلى عوالم الجاحظ والحلاج والتوحيدي، دار مدارك للنشر، ط1، 2003، ص110.

[2] إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص19.

[3] المرجع نفسه، ص32.

[4] إدوارد سعيد، الآلهة التي تفشل دائما، تر: حسام الدين خضور، التكوين للطباعة والنشر، بيروت، 2003، ص18.

[5] المرجع نفسه، ص19.

[6] إدوارد سعيد، خيانة المثقفين-النصوص الأخيرة-، تر: أسعد الحسين، دار نينوى للدراسات والنشر، دمشق،2011، ص36.

[7] المرجع نفسه، ص ص 36 -37.

[8] المرجع نفسه، ص89.

[9] إدوارد سعيد، السلطة- السياسة -الثقافة، تر: نائلة قلقيلي حجازي، مكتبة دار الآداب، بيروت، ط1، 2008، ص418.

[10] علي حرب، أوهام النخبة أو نقد المثقف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2004، ص38.

[11] المرجع نفسه، ص ص 145- 146.

[12] المرجع نفسه، ص146.

[13] إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ص168.

[14] جوادي هنية، المرجعية الروائية في روايات الأعرج واسيني"رسالة ماجيستير "، اشراف مفقودة صالح، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2001، ص14.

[15] الحبيب السايح، من قتل أسعد المروري، فضاءات للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2017، ص24.

[16] ينظر، إدوارد سعيد ، المثقف والسلطة ، ص09

[17] الحبيب السايح، من قتل أسعد المروري، ص25

18 المرجع نفسه، ص27.

19 المرجع نفسه، ص 74.

20 المرجع نفسه، ص30.

21 المرجع نفسه، ص189.

22 علي حرب، أوهام النخبة أو نقد المثقف، ص145

23 ينظر: أمال ماي، المثقف والسلطة قراءة في رواية المستنقع.. التحليق بجناح واحدة، دار الألوان الأربعة، الجزائر، ط1، 2010، ص5.

24 الحبيب السايح، من قتل أسعد المروري، ص196.

25 ينظر، إبراهيم رماني إضاءات في الأدب والثقافة والأيديولوجيا، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2009.ص393.

26 الحبيب السايح، من قتل أسعد المروري، ص81.

27 المرجع نفسه، ص71.

28 المرجع نفسه، ص50.

29 المرجع نفسه، ص61.

30 المرجع نفسه، ص101.

31 عبد الحميد هيمة، المأساة الوطنية في الرواية الجزائرية"قراءة في نماذج من الرواية الجزائرية الجديدة، مجلة العلوم الإنسانية، بسكرة، ع29، 2013، ص232.

32 ينظر: علي حرب، الاستلاب والارتداد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1998، ص79.

33 الحبيب السايح، من قتل أسعد المروري، ص60.

34 المرجع نفسه، ص43.

35 علي حرب، الاستلاب والارتداد، ص78.

36 الحبيب السايح، من قتل أسعد المروي، ص175.

37 علي حرب، الاستلاب والارتداد، ص78.

38 الحبيب السايح، من قتل أسعد المروري، ص214.